

مُعَانِيَةُ النَّفْسِ
مَوْعِظَةٌ فِي تَوْبِيخِ النَّفْسِ وَلَوْ مَهَا

لَا مَأْمُورَ إِلَّا إِلَى

قِرَاءَةِ وَعَمَلَةٍ عَلَيْهَا
وَحَيَاتٍ نَفْسٍ



0129503

دار الصلابة للقراءة

معاقبة النفس

موعظة في توبيخ النفس ولومها
للإمام الغزالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للنشر - والتحقيق - والتوزيع
شارع الميراثية - أمام محطة بنزين القناتون

ت ٣٣١٥٨٧١ ص. ب ٤٧٧

كتاب قد حوى درراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً حقوق الطبع محفوظة
لِلناشر

دار الصحابة للتراث بطنطا
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .
المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا
ش المديرية بجوار محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ .
ت : ٣٣١٥٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على رسوله الذى
اصطفى ﷺ .

أخى المسلم : راقب نفسك ولاحظها فى أقوالها وأعمالها ،
وحاسب نفسك قبل أن تحاسب وزن عملك قبل أن يوزن
عليك وراجعها حين تنحرف ، أو تهمل بشيء من الانحراف
لتعيدها إلى الصراط ، وتقيمها عليه ، وتلزمها به وتعاتبها إن
سعت بطيئة إلى الخير . لتفجر بها ينابيع كوامن الخير والبركة .
وهكذا .

وبذلك تكون قد حاسبت نفسك ونصبت من نفسك
قاضياً وحارساً يقظاً حذراً تمنعها من السوء وتدفعها إلى الطيب
من القول والعمل .

واعلم أخى الحبيب :

أن لومك لنفسك ومحاسبتها لا تعنى مجرد المعاتبة واللوم
فكن مثل التاجر الذى يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى
يتجر فيه ، ثم يحاسبه .

فما بالك بتجارة رأس مالها المحاسبة وربحها الفردوس
الأعلى ، فتدقيق الحساب مع النفس أهم بكثير من تدقيقه في
أرباح الدنيا .

أخى : ألا تجد نفسك تلوم وتقسو في الحكم وتحصى على
غيرك كل صغيرة وكبيرة خاصة إذا كنت مسؤولاً ؟ فنفسك
أولى أن تعاتبها وتحصى عليها وتؤدبها .
أخى لا تنسَ .

أن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها
فكل يوم يمر لا يأتي مثله ، ما تكسبه اليوم رصيد لك غداً
هاهو الإمام الغزالي يصحبنا ويقدم لنا الدواء لمعابة النفس .

أبو حذيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم (١) أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أماراة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر (٢) إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن ذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتسويخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاببتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك قال تعالى ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [سورة الذاريات / ٥٥] وسيله أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغبائتها وأنها أبداً تتعذر بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها :

(١) بداية نص كلام الغزالي من كتابه الإحياء [٣٨٠ / ٤] .

(٢) الغمر : الغلبة

» يا نفس ...

ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفتنة ، وأنت
أشد الناس غباوة وحمقا .

أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار . وأنت صائرة إلى
إحداهما على القرب (١) ؟.

فما لك تفرحين وتضحكين . وتشتغلين باللهو . وأنت
مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ؟ . وعساك اليوم تختطفين
أو غدا . فأراك ترين الموت بعيدا . ويراه الله قريبا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما
ليس بآت ؟ .

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن
غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ،
ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في
نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون
الشباب . ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس

(١) لأن العمر محدود مهما طال فمواعده قريب .

يمكن أن يكون فيه الموت فجأة . فإن لم يكن الموت فجأة
فيكون المرض فجأة . ثم يفضى إلى الموت .

فمالك لاستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب .
أما تدبرين قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة
معرضون ، ما يأتئهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه
وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾ ؟ ... [الأنبياء / ١]

ويحك يا نفس ! إن كانت جرائتك على معصية الله
لاعتقادك أن الله لا يراك ؛ فما أعظم كفرك وإن كان مع
علمك باطلاعه عليك ؛ فما أشد وقاحتك وأقل حيائك ! .

ويحك يا نفس ! . لو واجهك عبد من عبيدك . بل أخ من
إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه .
ومقتك له (١) ، فبأى جسارة (٢) تتعرضين لمقت الله
وغضبه . وشديد عقابه ؟ . أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات
هيهات . جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه .
فاتحبتسى ساعة فى الشمس . أو فى بيت الحمام (٣) . أو قربى
إصبعك من النار . ليتبين لك قدر طاقتك .

(١) وبغضك له . (٢) شجاعة . (٣) دورة المياه .

أم تغترين بكرم الله وفضله . واستغنائك عن طاعتك وعبادتك . فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ؟ . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم . فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ؟ .

فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز . أو يسخر عبدا من عبيده ، فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟ .

أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها . وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس ! . ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة . فإنك تدعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك . ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله زرجها ﴾ [هود / ٦] وقال في أمر الآخرة :

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم / ٣٩] .

فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعى فيها ،
فكذبت بأفعالك ، وأصبحت تتكاليين (١) على طلبها تكالب
المدهوش المستهتر (٢) ، وكل أمر الآخرة إلى سعيك ،
فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر . ما هذا من علامات
الإيمان .

لو كان الإيمان باللسان ، فلم كان المنافقون في الدرك
الأسفل من النار ؟ !

ويحك يا نفس ! . كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب . وتظن
أنك إذا مت انفلت وتخلصت . هيهات (٣) . أتحسين أنك
تتركين سدى (٤) ؟ .

ألم تكونى نطفة من مئى يمى (٥) ثم كنت علقة فخلق
فسوى ؟ ! ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ ؟
[القيامة / ٤٠] فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك

(١) من شدة الحرص على الدنيا .

(٢) المدهوش : الذى ذهب عقله ، والمستهتر : المولع بالشئ .

(٣) كلمة تقال : لما يصعب مناله .

(٤) بلا حساب ولا عقاب .

(٥) وهو ما يتكون منه الجنى .

وأجهلك . أما تتفكرين أنه مماذا خلقتك ؟ . من نطفة خلقتك (١) فقد رك . ثم السبيل يسرك . ثم أماتك فأقبرك . أفتكذبينه في قوله : ثم إذا شاء أنشرك ؟ .

فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرک ؟ . ولو أن يهودياً أخبرك في ألد أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه . أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس (٢) وتخمين وظن ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟ ! .

والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال ، من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ .

أم صار حر جهنم ، وأغلالها وأنكالها (٣) . وزقومها ومقامعها ، وصديدها وسمومها ، وأفاعيها وعقاربها ، أحقر

(١) ماء التناسل من الرجل والمرأة . (٢) الظن والتخمين .

(٣) القيد الشديد

عندك من عقرب لا تحسین بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ .
 ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهاائم حالك
 لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك !!

فإن كنت يا نفس ، قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ،
 فمالك تسوفين (١) العمل والموت لك بالمرصاد . ولعله
 يختطفك من غير مهلة . فيماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك
 أنت وعدت بالإمهال مائة سنة . أفتظنين أن من يطعم الدابة في
 حضيض العقبة (٢) يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ .

إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً
 بطالاً (٣) ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى
 وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما

(١) التسويف : تأجيل الشيء والمماطلة فيه .

(٢) العقبة : الطريق غير الممهّد الوعر الخاص بالجبال فلا حياة فيه ولا

مرعى .

(٣) فلا عمل له والبطال صاحب الباطل .

يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه ، اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ! .

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلى ، فلعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ؟ .

هل له سبب إلا عجزك من مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ .

أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ .

هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه . فلا تكون اللجنة قط إلا ومحفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين : غداً غداً ؟ .

فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ؟ . أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم أمس . لا بل تعجزين عنه اليوم . ، فأنت غداً عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة

كالشجرة الراسخة التى تعبَّد العبد (١) بقلعها ، فإذا عجز العبد
عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة
وهو شاب قوى . فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول
المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ،
فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل
من العناء رياضة الهرم . ومن التعذيب تهذيب الذيب ،
والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان
لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة ،
وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة
تزيد على هذه حماقة ؟ .

ولعلك تقولين : ما يمنغنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذّة
الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشدّ
غباوتك ، وأقبح اعتذارك .

(١) وهو أن يؤجر العبد باقتلاعها ومأمور من الله بذلك

إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية
عن الكدورات الدائمة أبد الآباد (١) ، ولا مطمع فى ذلك إلا
فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ،
فرب أكلة تمنع أكالات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء
البارد ثلاثة أيام ، ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن
شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً ، امتنع عليه شربه طوال العمر ،
فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة : أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم
طول العمر ، أم يقضى شهوته فى الحال خوفاً من ألم المخالفة
ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة
ف يوم ؟ .

جميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل
عذاب أهل النار . أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع

(١) تعنى الاستمرار الدائم طول الدهر .

العمر وإن طالت مدته .

وليت شعري : ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة . أو ألم النار في دركات (١) جهنم ؟ . فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟
ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمو جلى .

أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما اللحمو الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغناؤه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعنها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك فى جميع ذلك بجميع الحيل .

(١) فالدرجات لأهل الجنات وهى لآعلى والدركات لأهل النار وهى لأسفل .

وبهذا الجهل تستحقين لقب حماقة من رسول الله ﷺ
حيث قال : « الكيس (١) من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ،
والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » (٢) .

ويحك يا نفس !

لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ،
فانظري لنفسك . فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك .
فالأنفاس معدودة . فإذا مضى منك نفس ، فقد ذهب بعضك .
فاغتنى الصحة قبل السقم . والفراغ قبل الشغل . والغنى
قبل الفقر . والشباب قبل الهرم . والحياة قبل الموت . واستعدي
للآخرة على قدر بقائك فيها .

-
- (١) العاقل وإدانة النفس : اتهمها بالتقصير لتزداد من فعل الخيرات .
(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الترمذى (٢٤٦١) وأحمد (١٢٤/٤)
والطبرى فى الكبير (٣٣٨/٧) والبيهقى (٣٦٩/٣) والبعوى
فى شرح السنة (٣٠٩/١٤) من حديث شداد بن أوس
-رضى الله - مرفوعاً .

يا نفس . أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته . فتجمعين له
القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تتكلمين فى ذلك
على فضل الله وكرمه . حتى يدفع عنك البرد من غير
جبة ولبد وخطب وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير (١) جهنم أخف برداً وأقصر
مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن
يكون هذا كذلك . أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة
والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى . هيهات . كما لا يندفع
برد الشتاء إلا بالجنة (٢) والنار ، وسائر الأسباب .

(١) الزمهرير : شدة البرد

(٢) بالجنة والنار : يلبس الثقيل والسملك من الثياب ليتقى بها من البرد
وكذلك بالتدفئة .

فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه . لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه .

كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر . حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الحطب والجبّة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك . إذ خلقه سببا لاستراحتك . فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها: وإنما هي طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غني عن العالمين .

ويحك يا نفس ! .

انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقتكم ولا لكم إلا كنفس واحدة . وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما أكرم تعودون . وسنة الله تعالى لا تجددين لها تبديلا ولا تويلا .

ويحك يا نفس ! .

ما أراك إلا ألقت الدنيا . وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها

وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكد في نفسك مودتها .
 فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة
 وأحوالها ، أفما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ؟ .
 أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ،
 فمد نظره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر
 لا محالة إلى مفارقتها . أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ .
 أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك . وما لك فيها إلا
 مجاز (١) ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ،
 ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « إن روح القدس (٢) نفث في
 روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقة ، واعمل ما شئت فإنك
 مجزى به . وعش ما شئت فإنك ميت » (٣) .

(١) أى عبور الطريق وقطعه

(٢) هو جبريل عليه السلام ونفث : أى أوحى فى نفسى .

(٣) إسناده ضعيف :

قال العراقي فى تعليقه على الإحياء (٨٨/١) رواه الشيرازى فى
 الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر
 والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ! .

أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ؟ .

أو ماتنظرين إلى الذين مضوا : كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ .

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ؟ .

يبني كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض .

فهل في الدنيا حمق وانتكاس (١) أعظم من هذا؟

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً أما تستحين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟ .

(١) وهل في الدنيا إلا خيبة وخسران لمن لم يتخذ الإسلام منهجاً

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ،
وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والافتداء ، فقيسى عقل الأنبياء
والعلماء والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكيين (١) على الدنيا ،
واقتردى من الفريقين بمن هو أعدل عندك ، إن كنت تعتقدين فى
نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ! ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر
طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة
الجلية ؟ .

ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ،
أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض
الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك
وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا
أحد من على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى
زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك
الذين كانوا من قبلك :

(١) غير المفارقين لها .

فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (١) ؟ .

فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي ؟ ! هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض . سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب . كيف ويأبى إيدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلثك (٢) ، بل أمر دارك ، فضلاً عن محلثك . ؟

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها . وتنزهاً عن كثرة عنائها ، وتوقياً من سرعة فنائها ؟ . أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ . وما لك تفرحين بدنياً إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأفٍ لدينا يسبقك بها هؤلاء الأخصاء ! .

فما أجهلك ، وأخس همتك وأسقط رأيك ، إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، في

(١) فليس لهم ذكر ولا سيرة والركز : الصوت الخفى .

(٢) المحلة : المنزل .

جوار رب العالمين ، أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل ، فىا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! .

فبادرى ويحك يا نفس . فقد أشرفت على الهلاك . واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ .

ويحك يا نفس ، مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها ، لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية ، وأصررت على عادتك ؟ .

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدهك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفرع الأكبر (١) بين يديك ؟ .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا (٢) على أنفسهم كلهم بالإيمان المغلظة

(١) الفرع الأكبر : يوم النشور يوم البعث والعرض الأكبر

(٢) أقسموا وحلفوا .

أنهم لا يرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت فى أمنيتهن ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ؟ .

ويحك يا نفس ! .

أما تستحيين ؟ تزينين ظاهره للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظام ؟ أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ، ويحك .

أهو أهون الناظرين عليك ؟ . أأمرين الناس بالخير وأنت متلطبخة بالردائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ . أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة (١) وأن العذرة لا تطهر غيرها ، فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ؟ .

ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حماراً للإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا

(١) ما يخرج من دهر الإنسان .

تعجبين بعملك، وفيه من الآفات مالمونجوت منه رأساً
برأس (١) لكان الريح في يدك . وكيف تعجبين بعملك مع
كثرة خطاياك وزلللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة ،
بعد أن عبده مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة
واحدة ، مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس ، ما أغدرك . ويحك يا نفس ، ما أوقحك ،
ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المعاصي ! . ويحك
كم تعقدين فتنقضين (٢) ، ويحك ، كم تعهدين فتغدرين .

ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنيك
كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور
كيف كانوا : جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً (٣) وأملوا بعيداً ،
فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

ويحك يا نفس ، أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟
أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ . هيهات

(١) الكفتان متساويتان لالك ولا عليك .

(٢) تؤكدين العهد والميثاق ثم لا تفين من ذلك .

(٣) عمارات شاهقة .

هيهات، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى (١) ، أن تبدو رسل ربك منحدره إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه . وبشرى بالعذاب ؟ . فهل ينفعك حينئذ الندم . أو يقبل منك الحزن . أو يرحم منك البكاء ؟ .

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ .

ويحك يا نفس ! تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

(١) وهو كناية عن خروج الروح .

الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً إلى الله فيه على نفسه
أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه ، حتى يسأله عن عمله
دقيقه وجليله ، سره وعلايته . فانظري يا نفس بأى بدن تقفين
أمام الله وبأى لسان تجيئين . وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب
صواباً ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى
دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم
وخلود .

اعملى قبل أن لا تعملى ، واخرجى من الدنيا اختياراً
خروج الأحرار ، قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا
تفرحى بما يساعذك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ،
ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك
ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب
الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا إعتباراً ، وسعيك لها
اضطراراً ^(١) ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة

(١) أى يكون السعى قدر الحاجة والكفاف .

ابتداراً (١) ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويتغنى
الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى .
واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ،
ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار
به وإن لم يسر .

(١) مسارعاً ومسابقا .

العلاج

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللفظ بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له .

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ، والقنوت كبيرة من الكبائر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طريق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ؟

وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟

فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة (١) ، فقد
بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء ،
واستغيثى بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ،
وأدمنى الاستغاثاة ، ولا تملئ طول الشكاية ، لعله أن يرحم
ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد
تفاقت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ،
وراحت عنك العلل . فلا مذنب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا
مهرب ، ولا ملجأ ولا منجى إلا إلى مولاك فافزعى إليه
بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك
وكثرة ذنوبك ، لانه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب
المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم
مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ،
وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح
فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ،

(١) نزول الدمع : دليل على التأثر والرحمة

والمستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعة ،
والكرم فائض والعفو شامل .

وقولى : يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حلیم
يا عظیم يا كريم ، أنا المذنب المصير ، أنا الجریء الذى لا أقلع ،
أنا المتماذى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ،
والبائس الفقير ، والضعیف الحقیق ، والهالك الغریق ، فعجل
إغاثتى وفرجى ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك
ومغفرتك ، وارزقنى قوة عصمتك ، يا أرحم الراحمين « اهـ .

دار النضر للطباعة والإدارة
٢ - شارع نشتا على شجرة القمامة
الرقم البريدي - ١١٢٣١

دار الصحى ابن الترات بطناً

للنشر. والتحقيق. والنويع

ت: ٣٣١٥٨٧ - ص. ب ٤٧٧

شارع المديرية

فاكس : ٤٠/٣٣٨٧٦٩